الخُلق القوميّ

بقلم علي أدهم

من الآراء الغالبة والاعتقادات الشائعة التي تكاد تسلك في عداد البديهيات فكرة ان لكل أمة من الامم خلقها القومي الخاص الذي تمتاز به عن غيرها من الامم ، وان هذا الخلق القومي له نصيب موفور من الثبات والدوام ويمكن اقتفاء آثاره وتتبع جذوره في خلال ماضي الامة وفي كل مظهر من مظاهر حياتها وبكل ناحية من نواحي حضارتها .

وقد تبلغ ثقة بعض الناس بوجود هذا الخلق القومي واستقراره الى حد الاجتراء على التكهن بمعرفة موقف أي امة من الامم تلقاء حادث من الحوادث العارضة استناداً على سابق علمهم بخلقها القومي .

وكل أمة من الامم تعتز بما تعده خلقها القومي ، وتفاخر به غيرها من الامم ،وكثيراً ما تسرف الامم وتبالغ في الاعتزاز بهذا الخلق القومي الحقيقي او المتوهم وتُدل بمكانتها على حساب انتقاص غيرها من الامم والنيل من خلقها القومي ، وقد حمل ذلك الكاتب البحاثة البريطاني هملتون فايف على ان يقول [1] « ان فكرة الاعتقاد بوجود الخلق القومي من أخطر العوامل الداعية الى إثارة الحروب وإيقاع النفور بين الامم ، وإنها من أقوى العوائق القائمة في سبيل إيجاد وحدات اجتماعية تؤدي في النهاية الى اتحاد فيدرائي بين مختلف الأقوام قائم على تصور إنسانية عامة تضم شمل الجميع ولا تقصي احداً عن حظيرتها »

وقد روى ابن عبد ربه في حديثه عن وفود العرب على كسرى أن النعمان بن المنذر قال لكسرى بعد أن أمّنه كسرى من غضبه مفاخراً بالعرب ومدافعاً عنهم : « وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المنْحَفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة» ونرى من ذلك ان تفاخر النعمان بعروبته حمله على قلب الهند والصين والترك والروم ، وكذلك الاعتزاز بالخلق القومي كثيراً ما يكون مدعاة الى الغرور والصلف والاستطالة على الأقوام وتحديها ، وهو يقتضي تمجيد الأمة لمزاياها وخصائصها وإعجابها بتقاليدها وعاداتها .

على أن هناك مفكرين رأوا ضرورة إخضاع هذا المعتقد الراسخ من الخلق القومي للبحث الخالص والنظر العلمي المجرد ونبذ كل ماكان بيّن المغالاة مفرطاً في الادعاء ، ولكنهم مع ذلك يسلمون بأن وجود الخلق القومي مما لايمكن نكرانه او المماراة في حقيقته ، ولو أنهم قد يعجزون عن اكتناه سره وكشف خوافيه ، وقد انتهى المؤرخ الألماني الكبير فون رانك الى القول بأن الروح القومي يُشْعَر به ولكن لايمكن فهمه ، فهو ضرب من الهواء الروحي يتخلل كل شيء، ولكن مؤرخين كثيرين لم يشاركوا فون رانك في تحفظه واعتداله، ولذا يستطيع الانسان في يسر وسهولة ان يأتي بمجموعة كبيرة من الأحكام الخاطئة والآراء الباطلة التي يرددها بعض المفكرين البارزين حينما يتحدثون عن الخلق القومي لبعض الأمم.

والمعروف في الوقت الحاضر – كما يذكر لنا الباحث الاجتماعي المتمكن موريس جنزبرج في محاضرته عن الخلق القومي – أن نتائج محاولة إخضاع الخصائص القومية للبحث العلمي تثير الشكوك في وجود تلك الخصائص القومية ، ولذلك يحسن في بادىء الامر أن أوضح بعض العقبات التي تقوم في طريق البحث عن خلق الامم القومي وتقريره وبيان سماته وملامحه .

« إن السبيل القويم لدراسة الخلق القومي في الأغلب الأعمّ لاتكون عن طريق مراقبة الاختلافات في سلوك الأفراد وتصرفاتهم ، وانما تكون عن طريق تعرّف صفات الامة البارزة في آثارها الثقافية وتقاليدها وسياستها العامة . وقد دلت دراسة صفات الامم وسماتها العقلية والاخلاقية بهذه الطريقة على ان ما اصطُلحَ على تسميته « الخلق القومي للامم » ليس شيئاً ثابتاً جامداً مستعصياً على التغيير ، وإنما هو شيء مَرِن قابل التشكيل حسب الظروف التي تكتنف حياة الامم . »

---

(١) راجع صفحة ٢ من كتابه القيم المسمى « وهم الخلق القومي »
The Illusion of National Character. By Hamilton Fyfe.

فهناك قبل كل شيء صعوبة التغلب على النزعة الشخصية في الملاحظة والمشاهدة والتفسير الذي يتبعها ، وكثير من الآراء التي شاعت عن خلق بعض الامم القومي أو الكتب التي وضعت لتحليل خصائصها القومية وميزاتها العقلية والخلقية، قد كونت او كتبت في ضوء فكرة فلسفية غالية ، أو في ظل نزعة سياسية مسيطرة، أو بتأثير عقيدة دينية أو لون من ألوان الهوى والميل، أو لغرض خفي وغاية مبيتة، أو مجاراة لسياسة خاصة وموقف معين . والكثير مما كتبه الالمان عن الانكليز في القرن التاسع عشر يبدو فيه أثر النزعة الخاصة ووجهة النظر المعينة . ففي مطالع ذلك القرن كان الكتاب الألمان يرون في استقلال بريطانيا الوطيد أنموذجاً تحتذيه المانيا في جهادها وإعادة بنائها ، ثم ظهرت في النصف الثاني من ذلك القرن الآراء الشعوبية والنظريات الشاملة والادعاءات العريضة عن طبائع السلالات والاجناس ، وتعلق بها الألمان تعلقاً شديداً ، وكثرت مباهاتهم بشمائل الجنس الالماني وصفاته الغالبة ، وصوّر الكتاب الألمان البريطانيين على أنهم فرع من السلالة الألمانية ، فهم إذاً في بحبوحة الشرف وذروة المجد ، ثم طغت على ألمانيا بعد ذلك نظرية اتباع « السياسة الواقعية » والتطلع الى السيادة العالمية ، وصار الألمان يرون في البريطانيين المنافس القوي البأس المبسوط الدهاء الذي أخذ عليهم المسالك وسد في وجوههم الأبواب . واخذ الألمان يصورون البريطانيين في صورة المادي الجشع الذي يخبىء حبه للسيطرة وميله الى الأثرة خلف ستار من ادعائه النزعة الانسانية والتظاهر بالاستمساك بالأخلاق والدين. واكثروا من الاشارة الى الرياء البريطاني ونفاق البريطانيين في السياسة وفي غير السياسة.

وفي خلال الحرب الكبرى الأولى كان بعض الكتاب البريطانيين يصورون الأمة الألمانية في صورة الأمة الهمجية التي لا تحترم شريعة ولا تعرف قانوناً والتي قد فطرت على الاعتداء والشر وحب التملك وعبادة الدولة عبادة عمياء .

وقد كانت الآراء الاستعمارية التي سادت في القرن التاسع عشر تجعل بعض الأمم الأوربية المستعمرة تعتقد ان افرادها خلقوا من طينة أخرى غير الطينة التي خلقت منها الأمم الشرقية، وأن الرجل الغربي بوجه عام أسمى مدارك واكثر قابلية للتقدم والجهاد من الشرقي المتخلف في ركب الحضارة والذي دأبه الاستسلام للأقدار والركون إلى الحظوظ والاعتماد على المعجزات والنكول عن مواجهة الحياة . وكان تصوير الاوربيين لخلق الأمم الشرقية القومي يشوبه الاحتقار والتحامل والحرص على تقصّي العيوب وإظهار مواطن الضعف ونواحي التخلف والنقص.

على أن ذلك لم يمنع ظهور مفكرين معتدلين معقولين قد استطاعوا كبح جماح التعصب وقدروا حاجة الباحث في نفسية الأمم الى التجرد من الأهواء والارتفاع عن الصغائر وتحري الانصاف ، وعرفوا ان العيوب والنقائص والسخافات قد تبدو على السطح ، ولكن المزايا والحسنات وسائر الصفات الصالحة قد تكمن في الأعماق، وأن فهم نفسية الأمم يستلزم العطف والحرص على العدل ومجانبة الاهواء. والأخطاء التي يستدرج الباحثين اليها الميلُ والهوى او التعصب ومجافاة الاعتدال يمكن استدراكها إلى حد كبير بالموازنة بين اراء الكتاب من مختلف الأمم ، والنزاهة في تقدير الخلق القومي مسألة نسبية مثل النزاهة في سائر أمور الحياة .

وهناك صعوبة اخرى لحظها الباحثون الاجتماعيون. ومصدر هذه الصعوبة أن الجماعات القومية ليست جماعات تامة التجانس كاملة الوحدة . وهناك كذلك صعوبة في البحث عن تعريف للأمة تتوافى عنده آراء المفكرين ، ولكن الامة بوجه عام تكون من جماعة من الناس يسكنون بقعة من بقاع الأرض تضم اشتاتهم وحدة وتجمعهم جامعة شاملة وقد صحت إرادتهم وأجمعت كلمتهم على التعبير عن هذه الوحدة الرابطة والجامعة الشاملة بالاستقلال السياسي أو على الأقل بالاستقلال الثقافي . وواضح من هذا التعريف الموجز أن الأمم قد تضم جماعات متفاوتة التماسك والتجانس مختلفة الطبقات والعادات والعقائد . ولا نستطيع أن ندعي أن كل قوم من الأقوام الذين يسمون أنفسهم أمة قد تشابهت صفاتهم وتقاربت أخلاقهم وطبائعهم حتى يجيز لنا ذلك التحدث عن خلقهم القومي العام ، والتفاوت بين أهل الشمال وأهل الجنوب في الأمم الكبيرة مثل ايطاليا وفرنسا وإسبانيا من المسائل الملحوظة ، وأذكر ان الكاتب الفرنسي البارع الفونس دوديه قد تحرى إظهار الفوارق بين أخلاق سكان الشمال وسكان الجنوب الفرنسيين في إحدى رواياته المشهورة [1] وعندنا في مصر نرى شيئاً من التفاوت والاختلاف في الاخلاق والعادات بين سكان الوجه البحري وسكان الوجه القبلي . وفي معظم الأمم تتفاوت أخلاق السكان حسب المناطق التي يقيمون فيها ونوع العمل الذي يباشرونه ،

(1) A Passion of the South. By Alphonse Daudet.

فأخلاق سكان المدن الشاطئية تختلف عن اخلاق سكان المدن الداخلية ، وأخلاق سكان المناطق الزراعية غير اخلاق سكان المناطق الصناعية ، ولسنا في شتى الحالات على يقين تام بان وراء هـذه الاختلافات الواضحة وحدة عامة وصفات أخرى مشتركة غالبة .

والوحدة السياسية نفسها تختلف باختلاف الأمم . فهنـاك امم وحدتها قائمة على النظام الفدرالي مثل الولايات المتحدة وهناك أمم وحدتها قائمة على المركزية . ونفس هذه المركزية تتفاوت شدة ولينا في الأمم المختلفة . كما ان هناك أمما قد تقاربت فيها احوال الطبقات وزالت الفوارق بينها الى حد بعيد، وأمماً أخرى تباعدت فيها فوارق الطبقات حتى صار لكل طبقـــة معايير أخلاقية خاصة ونظرات إلى الحياة مختلفة، وقد لوحظ ان الصفات التي اشتهر بها البولنديون هي الصفات المعروفة عن الطبقـــة الأرستقراطية وحدها ، وفي بعض الاحيان يكون التشابه بين الطبقات الراقية في أغلب الأمم أكثر تقارباً مما بينها وبين سائر الطبقات في الأمم التي تشمل هذه الطبقات العالية . ولا بد عند إصدار الحكم على أمة من الأمم من النظر كذلك إلى مستواهـا الثقافي ، ولكني لا استطيع أن ابت في مسألة هل ارتفـــاع المستوى الثقافي للأمة مما يساعد على وجود الخلق القومي العام أو لا ، لأن الثقافة إن كانت من ناحية تطبع عقول الامة بطابعها وتصقلها بصقالها إلا أن الثقافة العالية من ناحية أخرى تعين على إبراز المواهب الكامنة واستقلال الشخصية وتعدد الوان التفكير واتساع وجهات النظر حتى ليكاد أن يصبح كل فرد أمة وَحْدَهُ لها ميزاتها وخصائصها .

وفضلاً عن ذلك فان الصفات الأخلاقية او العقلية التي اشتهرت بها بعض الأمم لا نستطيع ان نقيم دليلاً قاطعاً على أنها صفات طبيعية مستقرة في كيان الأمة لا مزحل عنها ولا مفر منها . ولا نزاع في ان للبيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية أقوى الاثر في تكوين ما يسمى الخلق القومي ، ولكن أثر البيئة الطبيعية أثر نسبي ، وقد لا يستطيع ان يؤثر تأثيره في كل الظروف والاحوال . وتأثيره متوقف على عوامل شتى ، والفرد والجماعة من أقوى هذه العوامل . وقد بالغ المفكر الفرنسي القدير منتسكيو في تقدير قوة تأثير الطقس في حياة الأمم ، وكان هردر وهيوم في طليعة المفكرين الذين اثاروا الشك في ذلك ، وقد شغل هذا الموضوع بال الكثيرين من كبار الجغرافيين في العصر الحديث . وقد انتهى بهم البحث إلى ان الطريقـة الكفيلة بتجنيب الباحثين خطر التعميمات العريضة هي دراسة بناء الأمم الاجتماعي في ضوء تاريخها وبيئتها الطبيعية واعتبار حالتها العقلية نتيجـة للقوى التاريخية والاجتماعية التي أثرت فيها . والبيئة الاجتماعية مستهدفة لضروب من التغير والتحول حسب الملابسات التاريخية وضغط الظروف والاحوال . وأخلاق الأمم تتحول وتتبدل تبعاً لذلك . وقد كان اكثر الكتاب في أوائل القرن التاسع عشر حينما يتحدثون عن ألمانيا يقولون عنها « المانيا الفلسفية الحالمة الوديعة » ولكن المانيا الحالمة الفلسفية الوديعة أصبحت ألمانيا المتكبرة المتعجرفة الطاغية المعتدية فيما بعد . ولا نزاع في أن للاحوال السياسية والاجتماعية أثراً قوياً في هذا التغيير ، وقد ذهب بعض الباحثين ومنهم كاتب التراجم المعروف إميل لدفج في كتابه الممتع الذي سماه « المانيا » ، إلى ان الصفات التي اشتهر بهـا الألمان في العصر الحديث هي نفسها الصفات التي لحظها المؤرخ الروماني تاسيتوس ووصفها في كتابه عن المانيا، ولكن اكثر الباحثين في السلالات البشرية يرون أن معظم الصفات التي عزاها تاسيتوس للقبائل الألمانية القديمة هي بوجه عام صفات القبائل والأقوام البدائيين . ويزعم أنصار فكرة الشعوبية أن الفوارق بين الأمم مردها الى انتمائها إلى سلالات مختلفة وأن وحدة الأصل الشعبي في كل أمة هي سبب تشابه العقليات والأخلاق . ولكن هذه الفكرة لا تستحق أن نقف عندها طويلاً فان جميع الامم عـــلى وجه التقريب مكونة من سلالات مختلفة . وفضلاً عن ذلك فان فكرة وجود شعب نقي خالص له خصائصه وميزاته من الأفكار التي في نفس الباحثين المنقبين منها أشياء .

وهناك صعوبة اخرى تعترض فكرة وجود الخلق القومي . ومنشأ هذه الصعوبة هو اختلاف الآراء وتعارض النظريات في مسألة بناء الخلق الفردي ، وقد بنى المفكر الفرنسي فوييه آراءه في كتابه عن نفسية الاوروبين على اساس النظرية القديمـة عن الأمزجة ، وعنده ان الاسبانيين من ذوي المزاج الصفراوي ، وأن الالمان من ذوي المزاج الليمفاوي ، وان الفرنسيين من ذوي المزاج الدموي وماكدوجال يرى ان مصدر الاختلاف

– التتمة على الصفحة ٤٥ –

انتظروا في الاعداد القادمة
التفاصيل الوافية عن
مسابقات « الآداب »
في القصة والشعر

الخلق القومي

– تتمة المقال المنشور على الصفحة ٨ –

في خلق الامم هو تفاوت الغرائز الاساسية في القوة مثل غريزة حب الانضمام للقطيع والميل إلى تأكيد النفس وفرض الارادة وحب الخضوع والاستسلام وكذلك في تفاوت المزاج مثل الميل الى الانطواء او الميل الى الانبساط ، ويأخذ المفكر البحاثة الاسباني مادر ياجا في كتابه المسمى « الانجليز والفرنسيون والاسبانيون » بفكرة الطرُز الانسانية ، فالانجليز عنده رجال عمليون والفرنسيون رجال تفكير والاسبانيون رجال عواطف وأهواء ، ويزيد المشكلة تعقيداً اننا ما زلنا نجهل أهمية عاملي الوراثة والبيئة المنسيين في تكوين الأخلاق ، والمزاج يعتبر دائماً العامل الداخلي الكامن في تكوين الأخلاق وأنه هو السر في بقاء الخلق القومي ثابتاً لا يتغير ، ولكن الاتفاق على تحديد مشتملات المزاج قليل ، ودراسة أساسه الوراثي لا تزال في المرحلة البدائية .

ونرى من ذلك ان الحجج التي تقدم للاعتراض على فكرة الخلق القومي هي أولاً التفاوت بين أخلاق الأفراد وثقافتهم في كل أمة ، وثانياً عدم وجود فوارق بارزة حاسمة في الأخلاق الفردية بين مختلف الأمم على شريطة ان تكون الموازنة بين الطبقات الاجتماعية المتماثلة ، وثالثاً التغييرات الأساسية التي تطرأ على الآراء الخاصة بخلق الامم القومي .

ومن أسباب رواج فكرة الخلق القومي والاعتقاد بثباته التصور الخاطىء لفكرة الخلق بوجه عام . وخلق الفرد نفسه ليس مطرداً اطراداً تاماً ولا مستعصياً على التغيير استعصاءً مطلقاً . فالخلق يضم ميولاً متعارضة وهو الى حد ما قابل للتغير . ويمكن ان نفهم الخلق على أنه مجموعة من القوى متجهة نحو نوع من الوحدة والاستقرار تحت تأثير الميول الموروثة والارادة المركزية والملابسات الخارجية . وواضح ان الوحدة والاستقرار في الفرد اكثر مما في الجماعة ، والسر في ذلك هو ان إرادة الفرد اكثر تركيزاً مما نسميه « إرادة المجموع » وان إرادة الجماعة تشمل عناصر اكثر تنوعاً من عقل الفرد ، وان الجماعة أطول عمراً من الفرد ومن ثم تتاح لها فرص اكثر للنمو والتحول، والحديث عن الخلق القومي لون من ألوان التشبيه والمجاز .

ولكن هل يقتضي ذلك كله ان نرفض فكرة الخلق القومي رفضاً باتاً ونعتبرها وهماً من الاوهام كما فعل هاملتون فايف في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه ؟

إن الاحكام الملونة بلون العاطفة التي نسمعها كثيراً عن خلق الامم ليست كافية لرفض الفكرة ، وهي تواجهنا في اكثر البحوث الاجتماعية بدرجات متفاوتة ، ويمكن توقيها والاستحاطة في مراقبتها الى حد كبير ، وذلك بالموازنة بين الآراء المختلفة والاستزادة من المعلومات عن الأمم وأحوالها من جميع النواحي ، ولا نزاع في ان الحديث عن خلق الفرد يبدو أقرب الى الحقيقة من الحديث عن خلق الأمة ، لأن الفرد وحده هو الذي يصح القول بان له خلقاً خاصاً له نصيب من الوحدة والدوام والاستقرار ، ولكن الأمم برغم ذلك مثل سائر الجماعات لها تصرفات تستلفت النظر ، فاذا كان سلوكها في مواقف كثيرة يكشف عن لون من ألوان الوحدة والاستمرار فربما كان من الممكن في هذه الحالة ان نتحدث عن خلق الجماعة دون ان يلزمنا ذلك التسليم بوجود عقلية الجماعات او شخصيتها . وفي الواقع ان الحديث عن خلق جماعة من الجماعات يشمل معنيين ويحتمل تفسيرين ، فقد يدل على الاختلاف في توزيع سمات خاصة وطرز نفسية في مختلف الجماعات مثلما يحدث حينما نقول ان الالمان أسرع الى الطاعة من الانجليز ، وان الفرنسيين في مجموعهم أفصح لساناً وأعلى بياناً من الانجليز وما إلى ذلك من الاحكام التي تصف الخلق العام والنزعة السائدة . ومن الواضح أننا اذا أردنا أن نجعل لمثل هذه الاحكام أساساً علمياً فان علينا ان نلجأ الى الاحصاءات الدقيقة لتبين لنا حقيقة توزيع هذه السمات في الامم المختلفة . ولكن الحديث عن خلق الجماعات قد يقصد به معنى آخر ، وهو نظام الجماعة ممثلاً في قوانينها وشرائعها وآدابها واتجاهاتها الفلسفية ومنازعها العلمية وسياستها واقتصادياتها وجوانب حضارتها المختلفة وألوان ثقافتها، والمفروض في هذه الحالة ان النظم السائدة في أمة من الامم قد اشترك في عملها أفراد هذه الامة ، فهي من ثمرات تجاربهم ونتائج تفكيراتهم ، ومن الواضح ان هناك علاقة بين النظم السائدة في أمة من الامم وخلق هذه الامة ، والنظم السائدة من ناحية أخرى تعين على تكوين الامم تكويناً خاصاً ، وتؤثر في حياتها أبلغ تأثير ، والعلاقة بين خلق الامة وبين نظمها الغالبة علاقة متبادلة. ويزيد المسألة تعقيداً ان النظم السائدة قد لا تدل على خلق الامة بوجه عام وإنما تدل على خلق الطبقة القوية القابضة

على أزمة أمورها والموجهة لها ، وهذه الطبقة قد تعمل على إيجاد النظم التي توائم مصالحها وتمكن لها، ومن أجل ذلك قد تظل بعض الصفات كامنة في الامة حتى تتاح لها فرصة الظهور ، وقد يكون في تغلب طبقة أخرى من طبقات الامة على الطبقة التي كانت مستأثرة بالسلطان مجال لظهور صفات أخرى في الامة لم تبرز من قبل . ويمكن ان نستخلص من ذلك أننا لا نستطيع ان نقف على حقيقة خلق الامة من نظمها السائدة وسياستها العامة ، فقد تكون هذه النظم السائدة من صنع الطبقة الغالبة المستأثرة بالنفوذ ،ولذا يحسن ان نتتبع تاريخ نشوء هذه النظم لنقف على مناسبات وضعها والطبقة او الفريق من الامة الذي جاهد لتغليبها . ومن المعروف ان بعض النظم قد فرضت على بعض الامم فرضاً وكان لها تأثير بالغ بعد ذلك في حياة هذه الامم.

وتواجهنا مثل هذه الصعوبة حينما نحاول ان نتعرف خلق الامة عن طريق دراسة أدبها وعلمها وفلسفتها . فالواقع ان طرائف الامم الادبية والفنية ونظرياتها العلمية ومذاهبها الفلسفية من عمل الفريق الممتاز بين أفرادها ، وقد يكون هناك شيء من المبالغة في اتخاذ أفراد هذا الفريق عنواناً لخلق الامة ورمزاً لعقليتها ، وقد ذهب فوييه الى ان الصفوة المختارة في كل امة هي التي تعبر عن خلقها ، فشكسبير مثلاً هو الذي يمثل قومه الانجليز ، وجيتي خير مثل للعقلية الالمانية . والارجح ان في هذا الرأي جانباً من الحق ، ولكن علينا ان نكمله برأي آخر ، وهو ان سمات الامم الخلقية والعقلية إن كانت تظهر في الرجال الممتازين الذين يمثلونها فانها كذلك تظهر ظهوراً واضحاً في الامثال العامة والخرافات والاساطير الشائعة وفي الفكاهات والنوادر والطرف المستملحة الذائعة بين أفراد هذه الامة .

والظاهر ان تعرّف خلق الامم عن طريق دراسة آثارها الادبية وبدائعها الفنية وعلمها وفلسفتها ونظمها وقوانينها أهدى سبيلاً من تعرّف خلقها عن طريق مراقبة السمات الخلقية والملامح النفسية الغالبة على أفرادها . فميل الانجليز مثلاً الى الاعتماد على التجربة واضح في آثارهم الفكرية ، وحب الالمان للتعميمات العريضة والاحكام العامة الشاملة ظاهر في فلسفتهم ، والسياسة البريطانية قائمة على اغتنام الفرص ومعالجة المواقف والاحوال حسب ظروفها الطارئة ، وهي لا تعتمد على الحلول العامة والخطط المرسومة ، وساسة الانجليز يعنون بالمسائل المعينة المباشرة ، وذلك على خلاف السياسة الفرنسية التي تؤثر الحلول المتماسكة المنطق المحكمة الوضع وتتعلق بالاحكام العامة . وما يبدو في السياسة البريطانية من الاطراد والتناسق في المدى المتطاول سببه موقع بريطانيا الجغرافي واحوالها الاقتصادية لا الخطط الموضوعة ، وقد عزا بعض الباحثين كراهة الانجليز في سياستهم للاستمساك بالمبادىء الصارمة او الاعتماد على الافكار المجردة الى ضعف الانجليز في التفكير العام ، ولكن هذا الرأي خاطىء ينقضه ما أضافه الانجليز الى رصيد العالم العلمي والفلسفي.

والواقع أن ما يمكن أن نسميه الخلق القومي لأية امة من الامم هو في الحقيقة مجموعة التقاليد والمصالح والمثل العليا السائدة فيها ، والتقاليد والمصالح والمثل العليا هي مساك كل مجتمع من المجتمعات البشرية ، والتقاليد هي مجموعة التراث الاجتماعي ، والمصالح هي العناية بكل ما يضمن سلامة الأمة وتوفير أسباب الحياة لها ، والمثل العليا هي الأهداف التي تسمو على مصلحة الافراد الشخصية ولها في نفوس الامة مكانة تستوجب الاكبار وتلهم النفوس الطاعة وحب التضحية . والتقاليد تربط حاضر الامة بماضيها ، والمصالح توجه عنايتها الى حاضرها الراهن ، والمثل العليا توثق العلاقات بينها وبين المستقبل . وفي تقاليد أغلب الامم الاشادة بماضيها والاعتقاد بعراقة اصلها والتنويه بأبطالها السالفين ورجالاتها البارزين ، ومن تقاليد بعض الامم الاعتقاد بأن لها رسالة مقدسة وفكرة سامية قد اختصتها بها العناية الألهية . وتشمل التقاليد كذلك الاعتزاز بمناقب الامة ومواهبها ومزاياها وخصائصها ، وربما اضافت الى الامة محاسن متوهمة ومفاخر من نسج الخيال . ونرى من ذلك ان تقاليد الامم قد تشمل جانباً من الحقائق ، وجانباً من الاوهام والاكاذيب والاضاليل . وقد تؤثر هذه الاكاذيب تأثيراً بعيد المدى في حياة الامة وتاريخها . على ان التقاليد تظل محتفظة بقوتها ما دامت متصلة بمصالح الطبقات التي تمثل ارادة الامة ، ولكن هذه الطبقات عرضة للتغيير ، فقد تغلبها على أمرها طبقات اخرى وتقصيها عن النفوذ وتحول بينها وبين الاستعلاء او على الاقل تشاركها في السلطان والنفوذ الاجتماعي ، ويكون ذلك مدعاة الى تغيير ملحوظ في التقاليد المأثورة وظهور تقاليد مستحدثة . ويُشْعِر ذلك المشاهدين بأن تغيراً واضحاً قد طرأ على خلق الأمة القومي ، وفي جو كل امة من الامم مجموعة من الافكار والآراء والمعتقدات تركن اليها وتثق بها . وتشمل هذه الافكار والآراء والمعتقدات أنواناً من الغرور القومي

والادعاءات الوطنية ، وفي بعض الاحيان تنتصر العاطفة على العقل وتتغلب الاوهام على الحقائق . وقد روت اسطورة هندية ان قوماً من الاقوام ابتلوا باحديداب الظهور فكانوا ينتقصون الغرباء الذين يزورون بلادهم لاستقامة ظهورهم ويرون ذلك عيباً من العيوب . وكذلك الامم قد لا تكتفي بالاغضاء عن عيوبها بل تحاول المباهاة بهذه العيوب وتأخذ على غيرها من الأمم سلامتها من آثارها . ومجموعة الأفكار القومية لها تأثير بعيد في تكوين عقلية الأفراد وبناء خلقهم ، ومنها يتكون في الأمم ما يسمى بالرأي العام . والتقاليد ابعد إعراقاً من الرأي العام ، والرأي العام اكثر قابلية للتغيير من التقاليد التي يحتاج تبديلها الى جهود ضخمة .

وموجز القول ان السبيل القويم لدراسة الخلق القومي في الاغلب الاعم لا يكون عن طريق مراقبة الاختلافات في سلوك الافراد وتصرفاتهم وإنما يكون عن طريق تعرف صفات الامة البارزة في آثارها الثقافية وتقاليدها وسياستها العامة . وقد دلت دراسة صفات الامم وسماتها العقلية والاخلاقية بهذه الطريقة على ان ما اصطلح على تسميته الخلق القومي للأمم ليس شيئاً ثابتاً جامداً مستعصياً على التغيير وإنما هو شيء مرن قابل للتشكيل حسب الظروف التي تكتنف حياة الامة .

القاهرة علي أدهم

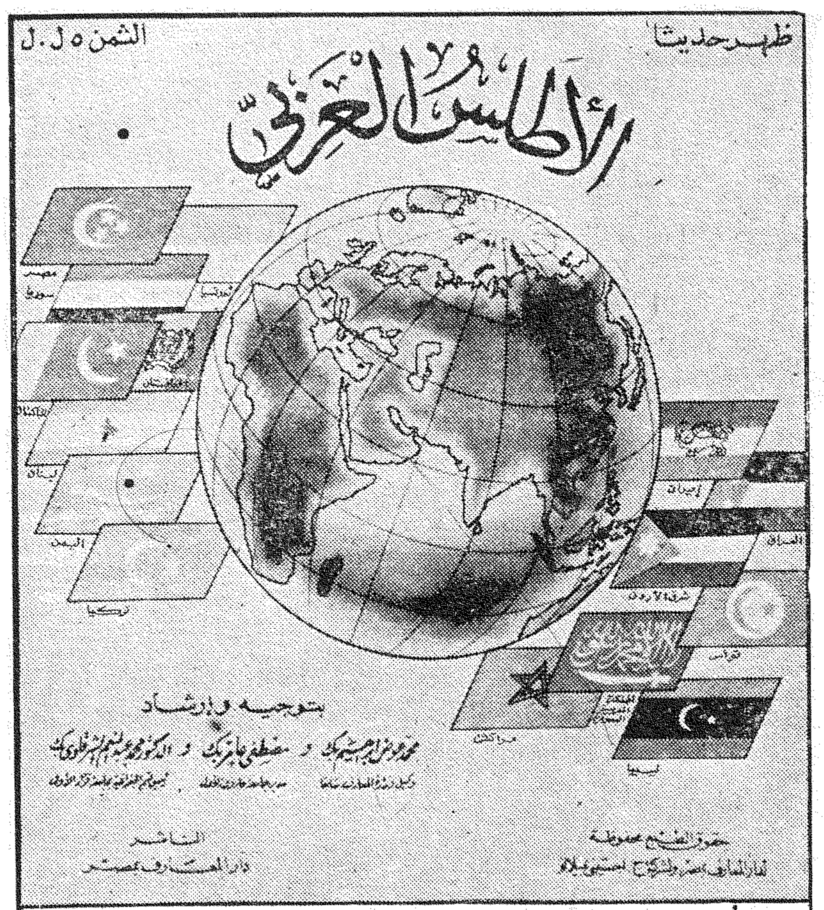

بعد جهد دام سنتين تعتز دار المعارف بمصر بتقديم هذا الاطلس الى الناشئة والطلاب في جميع الأقطار العربية ، فهو أطلس وموجز جغرافي توافرت فيه أناقة الإخراج ودقة الفن وصحة العلم ، ويشتمل على :

- خرائط الأقطار العربية والإسلامية وكذلك خرائط القارات المختلفة .
- لوحات للظواهر الجغرافية الفلكية والمصطلحات الجغرافية .
- دراسات توضح أهم المعالم والحقائق الجغرافية للبلاد والقارات المذكورة .

يطلب في لبنان وسوريا من
دار المعارف ببيروت
بناية العسيلي - عسور - بيروت

محلات
عدنان الحكيم وشركاه

تضمن سلامة
عينيك بتحضير
نظاراتك بدقة
فنية طبقاً لوصفة الطبيب